مفعول "غريب الألفاظ" في الدرس المعجمي
(وقفة على السبب الأساسي
لنشأة المعجم في العربية)

د. ابنُ حَوْيْلي ميذْني
أستاذ علوم اللسان العربي كلية الآداب واللغات
جامعة الجزائر2 (بوزريعة)

مقدمة:

لا نعرف عن العرب في عصرهم الجاهلي برهانا واضحا عن اهتمامهم بالبحث العلمي بله اللغوي، وبالنتيجة لا يمكن أن نجد لهم أثرا علميا بارزا في هذا المجال وتطبيقاته التي نبتغيها اليوم، و يبدو لي أن أقصى همّ يشغلهم هو أن يعيشوا يومهم بأقلّ مشقة. غير أن المؤكّد الذي لا يختلف فيه العاقل مع نفسه هو أنه كان لنزول أول آية في سنة 610م ، - وهي (اقرأ باسم ربك) - وقعٌ عنيف وهزّ شديد للنفوس المؤمنة لكي تسير في اتجاه التغيّر والتطوّر، في ظلّ تعاليم الدين الجديد الذي كان مثابة تباشير لبزوغ شمس حضارة عربية إسلامية، تعدّ الأولى من نوعها، عرفتها الإنسانية على وجه البسيطة، جاءت منقذة للناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم، أنزلها الروح القدس على قلب سيدنا محمد(ص)، في كتاب مكنون، بلسان عربي مبين، وكان من أوكد واجبات المؤمنين، من العرب

والمسلمين الأوّلين، وهم أصحاب الفصاحة والبيان، أن يحسنوا فهم معاني هذا الذكر الحكيم، ويتقنوا آليات إدراك مراميه، كي يجيدوا استنباط أحكامه. **ولكن ما الأمر؟ وقد قابلوا فيه من المعاني ما هو عنهم جديد، ومن الألفاظ ما هو عنهم غريب نديد، وعن أفهامهم معجم شديد، فلا بدّ، إذن، من طلب تذليل صعوبته، وشرحه وتقريبه إلى الأذهان والأفهام؟**

ومن هذا المنطلق بدأ عمق التفكير وجيّد التدبير في البحث عن حلّ لمعضلة (الغريب)، مع التركيز مبدئيا على ما جاء في أصول أساسية ثلاثة، هي بالترتيب:

1 – القرآن الكريم.

2 – الحديث الشريف.

3 – لسان العرب .

ثم كانت، من أجل ذلك، الرواية والجمع والحصر والترتيب والشرح والتذليل، للألفاظ والمعاني الغريبة، ومن ثمة بدأت الإرهاصات الأولى للتأسيس المعجمي في العربية ، في القرن الأول الهجري، على يد ثلة علماء الصحابة والتابعين (رضوان الله عليهم).

1 – مفهوم " الغريب " في اللغة والاصطلاح:

* **الغريب** من الناس **لغة**، هو البعيد عن وطنه، وجمعه (غُرَباء). ومنه قول الشاعر:

إذا كوكبُ الخرقاء لاح بسُحْرَةٍ سُهيلٌ، أذاعت غزْلَها في **الغرائب** [1] .

وقالت العرب أيضا : " قذَفَتْهُ نوى غَرْبة، أي بعيدة ". [2]

* **واصطلاحا**، هو - في ما تعلق بألفاظ اللسان - " الغامض من الكلام "، ومنه " كلمة غريبة". ويقال: تكلم فأغرب إذا جاء بغرائب الكلام ونوادره. وقد غربت هذه الكلمة؛ أي غمضت فهي غريبة. وأوضحوا المقصود من الكلام الغريب، بقولهم: " وكلام غريب: بعيد عن الفهم". (3)

من كل ما سبق، يلاحظ أن الكلام الغريب، أو الغرابة في اللفظة س كون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى ولا مأنوسة " بين الناطقين بهذا اللسان أو ذاك، وذلك لأن المُعَوَّل عليه في ذلك هو استعمالُهم.

وأعار علماء العربية (اللفظ الغريب) عنايتهم من الدرس والبحث ، فميّز البلاغيون - على وجه الخصوص- جملة من صفات الخاصة به في قسمين بارزين من الألفاظ هما :

① - ما تنْتابُ السامع معه حيرةٌ في فهم المعنى المقصود من اللفظ، لتردده بين معنيين أو أكثر بلا قرينة. ولأنه قد خرج لوجه بعيد عن معناها الأصلي، كما هو الحال في بعض الألفاظ المشتركة ، كقول رؤبة بن العجاج :

ومقلةً وحاجباً مزجّجا وفاحماً ومَرْسَنا مُسَرَّجَا

فلا يُعلم ما أراد بقوله «**مُسَرَّجا**» حتى اختلف أئمة اللغة في تخريجه ، فقال ابن دريد: يريد أن أنفه في الاستواء والدقة كالسيف السّريجي. وفي شرح ابن سيده : يريد إنه في البريق واللمعان كالسراج...، فلهذا قلنا إنه قد يحتار السامع في فهم المعنى المقصود لتردّد الكلمة بين معنيين بدون قرينة تعين المقصود منهما. وأما مع القرينة فلا غرابة في ذلك، كما ورد مع لفظة (عزَّر) في قوله تعالى:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ الأعراف/157. فإنها مشتركة بين التعظيم والإهانة. ويبدو لي أن ذكْرَ النصر هاهنا كان قرينة لإرادة التعظيم وليس للإهانة.

② ـ ما يعاب استعماله لاحتياجه إلى تتبع اللغات، وكثرة البحث والتفتيش في المعاجم وقواميس اللغوية المطوّلة ، وهو على نوعين :

1/2 – **ما يعثر له على تفسير بعد كدّ وبحْث** ، نحو: (تكأكأتم) بمعنى (اجتمعتم)، من قول عيسى بن عمرو النَّحوي [4]، الذي كان مشهورا (بالتقعير)، أي استعمال الكلام (الحوشي الغريب) ، من ذلك مثلا ما حكاه الجوهري في كتاب " الصحاح " قال إنه كان يعاني من مرض ضيْق التنفّس ، فأدركته الأزمة ذات يوم، وهو في السوق، فسقط عن حمار له، واجتمع عليه الناس، وهم يقولون: مَصْروعٌ مَصْروعٌ ، وكلهم بَيْنَ قَارئ ومُعَوّذٍ من الجَان. فلما أفاق من غشيتِه نظَرَ إلى ازدحامهم ، ثم قال : " ما لكم **تكأكأتم عليّ كتكأكئكم** على ذي **جِنّةٍ** ، **افْرَنْقِعُوا** عنّي". ومعناه (بلساننا المبين) : ما لكم اجتمعتم عليّ كاجتماعهم على مجنون، ابتعدوا عني... فابتعد الناس عنه متأثرين بما رَأوا، غير أن بعضَ الحاضرين عَلّق قائلا : " إن (جِنّهُ) يَتَكلّمُ بالهنْديَّة ".

2/2 – ومنه ما لم يُعْثر على تفسيرٍ لَهُ، وقد احتار علماء اللغة في أمره، كقول أبي الهميسع :

إن تَمنعِي صَوْبَكِ صوبَ المَدْمَعْ يَجْري على الخَدِّ كضِئْبِ الثَّعْثَعِ

من طَمْحَةٍ صَبيرُها **جَحْلَنْجَحْ**

جاء في (القاموس المحيط) للفيروزأبادي ، ومثله في (لسان العرب) لابن منظور" أنهم ذكروا اللفظ ولم يُفَسِّروهُ، وقالوا : " كانَ أبو الهَمَيْسَعِ هذا من أعْرابِ مَدْيَنَ، وما كُنَّا نَكادُ نَفْهَمُ كلامَهُ ". وكان الأزهري، صاحب (تهذيب اللغة) يقول في مثل هذه الأألفاظ : س هذه حروف (يعني ألفاظ) لا أَعرفُها ولم أَجدْ لها أَصلاً في كتب الثِّقاتِ الذين أَخذوا عن العرب العارِبة ما أَوْدَعُوا كتبَهم، ولم أَذكرها وأَنا أَحِقُّها، ولكنّي ذكرتُها اسْتِنْداراً لها وتَعَجُّباً منها، ولا أَدري ما صحّتُها "!

2 – نماذج من ألفاظ الغريب :

2 – 1 / في القرآن الكريم :

لا نقصد ها هنا بمصطلح (الغريب) ما كان مُخِلا بالفصاحة والبلاغة ؛ وإنما نريد الغامض من الكلام المبهم في الأفهام، وأصله مشتق من قولك: غربت الشمس تغربُ غروباً إذا بَعُدت و توارت في مغيبها عن الأنظار، ومنه شخص غريب إذا بَعُد عن وطنه وصار مجهولا عند من حوله. وصيغة اللفظ (فعيل) تعني (فاعل). ومنه: أغْرَبَ الرَّجُلُ في كلامه؛ أي جاء بشيءٍ غريبٍ بعيدٍ عن الفهم.

ويرى بعض الدارسين للسان العربي أن ليس في القرآن الكريم لفظ غريب، باعتباره نصا عربيا خالصا، ويستشهد على ذلك بكون القرآن نزل (بلسان عربي مبين) على أمة جاء ليخاطبها بما تفهم ، حتى يكون رحمة بها وحجّة عليها، كدأب الرسالات السماوية التي قبله، وقد قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) سورة إبراهيم /4). ولهذا السبب كان بعض المتشددين من علماء العربية يرفضون رفضا قاطعا قبول أي قول في وجود الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم ، وفي حسبانهم أن مثل هذا القول يخالف أحكام وصفه بالعربي المبين في الآية أعلاه ، ومن خالفها فهو آثم.

والمقبول عقلا ونقلا عند الدارسين الأولين والآخرين، هو إمكانية وجود اللفظ (الغامض) أو المستعصي عن الفهم، في أي نص لغوي مهما كانت طبيعته ، ومهما سمت قدسيّته ، والقرآن كلام الله المنزل على سيدنا محمد(ص) هو (نص لغوي عربي) يحمل رسالة خالدة ، كما أنه موجّه ـ يقيناـ إلى مخاطبة أفهام ومدارك وعقول بشرية، عاجزة ـ بالطبع ـ عن فهم كل ما أتى به ، وإدراك كل مقاصده، فيكون بالضرورة وجود ألفاظ قد غَرُبت عن أفهام الناس، أو عزبت عن مداركهم، فلابد لها ـ إذن- من مساعدة لغويةune assistance linguistique تذلّل الصعوبات عند وجودها.

والمعلوم عند ذوي الألباب أن الناس (أفرادا وجماعات، في كل عصر ومصر)، قد يختلفون في فهم لغتهم وتشعّب دلالات ألفاظها، تبعا لاختلاف قدراتهم وطبائعهم والثقافات التي ورثوها، ودرجة المستوى الحضاري المكتسب، والوعي النفسي المرتقب.

وينطبق هذا الحكم على حال العرب مع النص القرآني، فقد وجدوا في نصه الكامل ألفاظا ومعاني وقفَ عقلُهم عندها حائرا متدبّرا، يفحص ويتمعّن ويقلّب مقاصدها وتلوّن دلالاتها، فكان أن وجدها- رغم صورتها العربية المألوفة - من

(الرصيد اللفظي) الذي لم يعرفه كثير منه أو يألفه أو لم يتداوله، أو لم يعالجه...، في معاني حياتهم اليومية، ولذلك فهي غريبة عن المدارك والأفهام. ويمكننا، تبسيطا للدرس، ذكر بعض صفات ألفاظ القرآن، وهي:

1 - ألفاظ عربية (ابتكرها القرآن) للتعبير عن معاني الحياة المستجدة في مختلف جوانب الحياة التي أدخلها في حياة المسلمين.

2 - ألفاظ عربية خرجت من الاستعمال مع خروج معانيها من حياة العربي، فبعدت عن الأفهام، وجاء القرآن الكريم ليبعثها متداولة من جديد.

3 - ألفاظ لها أصول أعجمية، لمعاني حضارية معروفة عند الأمم الأخرى، وعربت صورتها بدخول معانيها وتمّ تداولها في منطقة عربية، أو وسط حضاريّ معيّن دون آخر من أرجاء الجزيرة العربية الأخرى، وجاء القرآن الكريم فوجدها مستعملة عند العرب، فأقرّ استعمالها.

4 - ألفاظ عربية أصلا وفصلا، معبرة عن معاني معروفة في حياة العربي، لكنها مستعملة بصورة عند قبيلة دون أخرى، فتكون بالضرورة مجهولة في الأوساط القبلية الأخرى.

ونظرا إلى أهمية استيعاب الأوامر والنواهي وما يتبعهما من فرائض وواجبات فقد تهمّم المسلمون منذ البداية بكل ما يمكن أن يساعدهم على حلّ مشاكل الفهم والإفهام. وكان الرسول(ص) ملاذهم الحصين لكل الملمات، ومنها (قصور) أفهامهم عن إدراك معاني القرآن الكريم، وما يمكن أن يتولد عن هذا القصور من غموض في إدراك المقاصد وفهم التوجيهات الربانية، ومنهج تطبيقها الصحيح...، لذلك كان(ص) يتطوّع لشرح غوامض الألفاظ والمعاني ومبهماتها،

لا يكلّ في ذلك ولا يملّ، سواءً سُئل في شيء منها أم لم يسأل، وفق مَا عُرف عليه من دراية بلسان العرب، وبلهجات القبائل المختلفة، ولا جرم، فهو البليغ المطلّع، لا ينازعه(ص) اللسان العربي وآدابه أي بشريّ...، (وسنرى جوانب من بلاغته(ص) حين الكلام في الحديث الشريف) .

والمعلوم، يقينا، أن الله تبارك وتعال_ قد علّم رسولَه الكريم ما لم يكن يعلم، ثم أمره بتبليغ الرسالة على الوجه المطلوب، قال: (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكنتعلمُ وكان فضلُ الله عليك عظيمًا) سورة النساء/ 113.

وذكر القرطبي في تفسيره (الجامع30/7) نقلاً عن الصحيحين عن ابن مسعود، أنه لما نزل قول الله تعالى: (الذينَ أمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ) الأنعام /82، شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله، وقالوا أيُّنا لم يظلم نفسه – فقال رسولِ الله (ص): ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: (يابُنَيَّ لا تشركْ باللهِ إنَّ الشركَ لظلم عظيمٌ) لقمان /13. وبعد انتقال الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى، كان المسلمون يتّجهون إلى كبار الصحابة والتابعين، والعلماء الفاهمين، يستفسرون عن ألفاظ القرآن ومعانيها.

ثم صار للعلماء من بعده (ص) دوْرٌ منظور وجُهد مشكور في ميدان (علم التفسير وشرح الغريب)، وهو امتداد لعلومه وقبسٌ من نوره (ص)... ثم هو امتثال لأمره (ص) القائل: « أعْربُوا القرآنَ والتمسوا غَرائبَه » [5] .(رواه الحاكم في المستدرك) .

ولأمر ما اقتفى أئمة العربية الأوّلون هذا الأثر الكريم، باتخاذهم لأنفسهم وسيلة إلى تعلمه والأخذ به في مسائل)العربية)عامة، ومسائل تدارس القرآن خاصة. قال أبو العباس ثَعْلب [6]: « وكنتُ أعنى بالنحو أكثر من عنايتي بغيره ، فلما أتقنتُه أكبَبْتُ على الشعر والمعاني والغريب»[7] .

ومن العجيب أن وجدنا من بينهم من يحفل بحفظ (الغريب)، ويُكاثِر به غيرَه، بل ويتفنّن في البحث عن أغواره ومتاهاته وأصنافه ومنازله وأصوله وتلوّناته...، وقد يصل الأمر أحيانا بين جُمَّاع الغريب إلى مشاحنات مفضيَّة إلى التنافُر والتطاحُن والعداوة بلا مبرّر، وذلك حينما يزعم أحدهم أنه أعرف (بالغريب) من الآخر، أو الآخرين في مقامات خاصّة، أو في حَضْرَات معيّنة، يكون للغالب فيها جوائزُ، أو عطاءاتٌ معتبرة من لدن ذوي الجاه القائم، والمال السائم، أو السلطان الفاهم ... ولله في خلقه شؤون.

ويبقى الهدف التربوي الظاهر من درس (غريب القرآن) والتصنيف في موضوعاته ، والتأليف في أبوابه هو تقديم معاني المفردات القرآنية لطلاب العلم والأدباء والباحثين حتى يقفوا على حقيقة أمرها، فيحسنوا الإفادة منها. وذكر الراغب الأصفهانى في مقدمة كتابه (مفردات غريب القرآن) موضّحا بقوله : « إن أول ما يُحتاج أن يُشتَغَل به من علوم القرآن، هي العلومُ اللفظية. ومن العلوم اللفظية تحقيقُ الألفاظ المفردة، وتحصيلُ معاني مفردات ألفاظ القرآن،... وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علمٍ من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزبدتُه وواسطته وكرائمُه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكَمِهم، وإليها مَفزعُ الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم...»[11] .

كما ذكر شمس الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، (المتوفى حوالي سنة 666 هـ/1267م)، في كتابه سغريب القرآن[11] أن طلبة العلم وحملة القرآن سألوه أن يجمع لهم تفسير غريب القرآن ، فألف لهم ما أرادوا». [8]

ب - مُصنّفاتٌ في غريب القرآن ومعانيه:

ويقال إن أول من صنّف في معنى غريب القرآن هو أبو سعيد **أبان بن تغلب بن رباح** البكريّ الجريريّ الكِنديّ الرّبعيّ الكوفيّ، الأديب، القارئ، الفقيه، المفسّر، أحد المحدّثين المشهورين، ومن مشاهير أتباع التابعين بالكوفة، ومن أعاظم القراء. نُسبت له تصانيفُ لم يصلنا منها شيءٌ ، وذُكر له فيها كتابٌ في)غريب القرآن) ، وآخرُ في (معاني القرآن). توفي عام 141هـ/ 758م. وهناك من يقول إن ابن عباس [9] هو أول مَن قال بغريب القرآن، وطبع له كتاب فيه، عدة مرات، بعنوان (غريب القرآن)، منها طبعة مكتبة القرآن بالقاهرة عام 1988م، بتحقيق محمد إبراهيم سليم. ثم توالت التصانيف في (علم غريب القرآن)، واتخذت تسميات مختلفة، منها : معان_ القرآن، الوجوه والنظائر، الأشباه والنظائر، مجاز القرآن، تأويل مشكل القرآن...، وغير ذلك من المسميات، وكلها تعالج ألفاظ (غريب القرآن) ومعانيه. وهي من الكثرة والتنوّع واختلاف الأسماء وكيفيات المعالجة بحيث أتعبُ في عَدّها لو أردتُ، إلا أنه ، وتعميما للفائدة، أقترح عليكم بعض العناوين الفاعلة، مرتّبة بحسب تاريخ وفاة صاحبها:

* **معاني القرآن**، للكسائي علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي، المتوفى عام 189هـ/804 م.

* **غريب القرآن،** لأبي بكر محمد بن حسن بن دُرَيْد، المتوفى عام 321 هـ/933 م.

* **غريب القرآن ،** المسمّى نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العظيم، لأبي بكر محمد بن عزيز السجستاني ، المتوفى عام 386 هـ/ 996م.

* **المفردات في غريب القران،** لأبى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهانى. المتوفى عام 502 هـ 1108 /م.

* **تذكرة الأريب في تفسير الغريب،** لعبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد، المعروف بأبي الفرج ابن جوزي، المتوفّى عام 597 هـ/ 1200م.

والقائمة طويلة جدا، ولا أحسبني قادرا على الإحاطة بها في هذه العجالة.

ج - أمثلة من (غريب القرآن) وما قيل في تفسيرها:

ارتأت حكمة الله أن ينظر المسلم في آي الذكر الحكيم ، متدبّرا لألفاظه ومعانيه ، متفهما لشريعته ومقاصده في كل زمان ومكان. وأما نحن في مقامنا هذا، فالمطلوب منا _ كدارسين - بعد أن تحدثنا عن (الغريب) أن نورد أمثلة من ألفاظ القرآن الكريم، التي نعتقد فيها هذه الصفة، كي نطبّق عليها، فبالمثال يتضح المقال كما يقال ، لذلك فانظر إلى هذه العيّنة- يرحمك الله _ وتمعّن ما قيل فيها:

1 - الأبُّ:

جاء في قوله (عزوجل):

(فَلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى طعامِه٢٤ أنا صببنَا الماءَ صَبًّا ٢٥ ثُمَّ شَقَقْنا الأرض شَقًّا٢٦ فَأنْبَتْنا فيها حَبًّا ٢٧ وَعِنَبًا وقَضبًا ٢٨ وَزَيْتُونًا ونخْلاً ٢٩ وحدَائق غُلْبًا ٣٠ وفَاكِهةً وأبًّا ٣١ مَتَعًا لكُم ولأنعامِكم٣٢) (عبس / ٣١)

قال الاشتقاقيون إن اللفظ من أصل (أب ب) ، ومنه : (أبَّ - أبًّا). وهو لفظ واحد، جاء مرة واحدة في سورة مكية النصوص اللغوية والتفسيرية، وهي الآية المذكورة أعلاه ، وذكروا لها تفاسير أغلبها يشير إلى دلالتها على (الكلأ والمرعى)، أو (ما تعتلف منه الدواب)، وقال آخرون شيئا يقاربه، أي أن الأبّ هو: الكلأ والمرعى، وكل ما ينمو بدون تدخل الإنسان ويرعاه الحيوان". وقيل: ما يأكله الآدميون من النبات يسمى الحصيد، وما يأكله غيرُهم يسمى الأبّ.

والصحابة (رضوان الله عليهم) هم أعلم الناس بعد الرسول(ص) بآي الذكر الحكيم، لغتها، وأسباب نزولها، وموطن استعمالها، وهم أهل الفصاحة والبيان، وفن القول، قد تجد منهم من يصرح بجهله لمدلول هذا اللفظ أو ذاك، أو يتحرّجُ ورَعًا وتقوًى أن يخوضَ في معاني المفردات القرآنية، ومن هؤلاء مثلا أبو بكر الصديق(رضي الله عنه)، الخليفة الأول ، يسأل عن معنى (أبًّا) في قوله تعالى: (وفاكهة وأبًّا) فيقول: " أيُّ سماء تُظِلّني؟ وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني ؟ إذا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم". (10)

وهذا عُمر بن الخطاب(رضي الله عنه)- كما روى ابن شهاب عن أنس- يقرأ هذه الآية، ثم يقول: " كل هذا قد عرفنا، فمَا الأبّ ؟ ... ثم ألقى عصًا كانت بيده وقال: هذا - والله - التكلُّف. وما عليك يا ابنَ (أم) عُمر إنْ لم تَدْرِ ما الأبُّ ؟ ثم قال: « اتّبعوا ما تبيَّن لكم من هذا الكتابِ، وما لم يَتَبيَّنْ فدَعُوهُ » .

وتشابهت الإجابة عن السؤال عند بعض الصحابة، ومنهم ابن عباس(رضي الله عنه)، ذلك الشاب العالم (راجعْ ترجمته في هامش الصفحة السابقة) ، الذي شرح (الأبّ) لغويا بقوله هو " ما نبتت الأرض، مما لا يأكل الناس" .

وفسّر عكرمة العلاقة بين اللفظين بقوله إن " الفاكهة: ما يأكله الناس ، والأبّ : ما يأكله الدواب " .

2 - حَنِيذ :

جاء اللفظ في قوله(عز وجل) : (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) (هود /69). وحَنَذَ اللَّحْمَ : شواه وأنضجه، فاللحم حنيذ. وأصله " محنوذ " ، وصرف من " مفعول " إلى " فعيل ". وجاء في (معجم مختار الصحاح) : حنذ الشاة : شواها. بعد أن جعل فوقها حجارة محماة لتنضجها فهي حنيذ. وعليه، فالحنيذ (يستوي الاسم للذكر والمؤنّث) هو المشوي على الحجارة (الرضف) ، ويكون غالباً بوضع (العجل) ، أو غيره من (الأنعام) التي يراد إنضاجها، في حُفرة خاصة فيها رضف، ويوقد عليها، ثم يُغلق باب الحفرة فينضج اللحم بسرعة. ويلاحظ هنا كذلك أن الحنيذ ما هو إلا نوع من الشواء، ولكن طريقة تحضيره تختلف عن الشواء المعتاد. قال ابن جرير الطبريّ في تفسيره للآية إن إبراهيم(عليه السلام) قام إلى عجل " ذبحه ثم شواه في الرَّضْف، فهو الحنيذ حين شواه ".

وفي الآية تنبيه ضمني إلى وجوب الإسراع **بقِرْى** الضيف الغريب، ثم إنه من تمام الضيافة وحسنها أن يكون الأكل كافيا ، بل كثيرا، لاحظْ - إن شئت - أن سيدنا إبراهيم(عليه السلام) قدّم عجلا كاملا لثلاثة أشخاص فقط. ومن مراعاة آداب الضيافة أن يقدّم (العجل) غير منقوص ليدلّل على أنه قد أنضج من أجلهم، مبالغة في الكرم، وكان من الممكن أن يكفيهم كيلو لحم واحد، لو كانوا بيننا !!

ومازال تقديم (الحنيذ) للضيوف من التقاليد العريقة التي يحرص العرب عليها ، وشعبيتها كبيرة في مناطق الجنوب، ووجْبة الحنيذ تَحْظى دوما باهتمام أهل البادية. وإذا كان الفول هو الطبق المفضّل في الإفطار الرمضاني عند المعْسرين في الحجاز، فإن وجبة الحنيذ تكوِّن الوجبة المفضلة للإفطار عند الميْسورين من أهل المنطقة الجنوبية في السعودية.

3 - خَرَقُوا :

جاء اللفظ في قوله(عز وجل: (وخَرَقُوا له بَنينَ وبَنَاتٍ بغير علمٍ) (الأنعام/ 100). قد يشتبه هذا الفعل بفعل آخر يأتي معه بالوزن نفسه (خرقوا = ثقبوا، ومرّوا من خلال...) ، فيكون هذا الاشتباه سببا في الغموض والإبهام، ومن ثمة يأتي وجه الغرابة.

وبسبب غموض معنى الكلمة قد يلجأ كل مفسّر إلى إعطاء (مرادف) حسب ما يفهم، ولذا تعددت المترادفات للفظ الواحد، وتباينت قربا وبعدا، مع العلم أن المترادف الحقيقي نادر جدا، وهكذا قالوا إنّ (خرقوا) قد يكون من بين معانيها: جعلوا، كذبوا، خرصوا، قطعوا له، وصفوا...، وقال ابن كثير في شرحه: " ومعنى (خرقوا) أي اختلفوا، وائتفكوا، وتخرّصوا، وكذبوا ...،" وذكر قول علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن: " خرقوا يعني تخرّصوا "... وسبحان الله عما يُشركون.

4 - فَاطِر:

ورد هذا اللفظ في آيات قرآنية عديدة، وتوجد سورة كاملة بهذا الاسم، قال تعالى:(الحمد للّه فَاطرِ السموات والأرض جَاعلِ الملائكة رُسُلاً أولى أجنحة مَثْنَى وثُلْثَ ورُبْعَ يزيد في الخلقِ ما يشاء قدير)(فاطر/01).

ويبدو اشتقاق هذا اللفظ من أصل عربي صرف هو (ف ط ر)، ومنه الفطرة، وهي الخلقة والطبيعة، واللفظ على وزن اسم فاعل، من معنى فطر الشيء: أوجده على غير مثال سابق، أو خلقه من العدم، أو ابتدعه... ويبدو لي أن الناظر لهذه الكلمة يرى معناها بيّنا واضحا، عربيا خالصا ، فلا داعي للقلق، ولكن مع ذلك نجد من يرتبك في دلالتها التأويلية أو يتردّد ، كأن الصعوبة آتية من شدة سهولة فهمنا لها... ومثال ذلك ما يروي عن (ترجمان القرآن وحبر الأمة)، الصحابي الجليل عبد الله بن عباس(رضي الله عنه)، عن نفسه، أنه لم يكن يدري ما معنى (فاطر)، معترفا بقوله: " ما عرفت (فَاطِرِ السموات والأرض) حتى أتاني أعرابيّان يختصمان في بئر، فقال أحدُهما: أنا فَطَرْتُهَا؛ أي ابتدعْتُها " .[11]

فهل يعقل أن يكون ابن عباس يجهل المعنى، أم أن هناك شيئا آخر خفي فهو يطلبه ؟ المستنتج من اعترافه أنه كان شديد الحرص على تتبّع معنى الكلمة القرآنية، وأن لا يكتفي بالظاهر منها، وتلك ميزة الباحث المحقّق، والدارس المدقّق. نفعنا الله وإياكم بهذا الصفات... قولوا آمين.

5 - المُخْبِتِين :

ورد لفظ (الإخبات) في القرآن الكريم بمشتقاته في ثلاثة مواضع هي قوله سبحانه تعالى: (فَإِلَهُكم إِلَهٌ واحد فلهُ و أسلموا وبشِرِ المخْبِتينَ)(الحج/34) ، وقوله عَزَّ من قائل : (إنَّ الذين أمنوا وعملوا الصالحات وأخْبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هُم فيها خالدون) (هود/23 ، وقوله (عز وجل) :

(وَلِيَعْلم الذين أوتوا العلمَ أنَه الحَقُّ من ربكَّ فيؤمنوا به فتخْبِتَ له قلوبهم) (الحج/54) .

واللفظ ، ها هنا ، في حالة جمع المذكر السالم، ومفرده **(مُخْبِت)** ، على صيغة اسم فاعل من الفعل المزيد (أخبت) ، ومصدره (الإخبات) ، والفعل الثلاثي المجرّد منه (خبت) ومصدره (الخَبْت). وأصل دلالته اللغوية على المكان المنخفض أوالمطمئن من الأرض؛ ضدّ المُصعِد والمرتفِع؛ ثم استعير لمعنى تواضع الإنسان الدّيّن، كأنّ **(المُخْبِت)** سَلَكَ نفسَه في الانخفاض، فأصبحت سهلة سمحة مِطْواعة؛ ويقال: فلان فيه خِبْتة؛ أي : تواضُعٌ ودمَاثَة.

ومعلوم أن (علم المفردات العربي La lexicologie arabe) يؤكّد ما لظاهرة القلب والإبدال بين الأصوات من تأثير عميق في إنشاء الألفاظ وابتداعها وتنمية الرصيد المعجمي المستعمل. انظر مثلا إلى بعض لهجات القبائل في الجزيرة العربية وما وقع في بعض ألفاظها من إبدال، ولاحظ كذلك لهجة قبائل أولاد نائل عندنا (وهم عرب خلّص) يقولون لك : اقْضَبْ دراهِمك ويَعنون (اقْبَضْ دَرَاهَمَكَ). وقد تسمع في بعض جهات الوطن من يسبّ فيقول: هذا عدوّ خبيت (بالتاء) ، وهو يقصد : هذا عدوّ خبيث (بالثاء). فيلتبس على السامع فهم المقصود، أهِجَاءٌ هو أم مدْح ؟ ... ولولا سياق المقام لكانت فتنة كبرى.

ولمصلحته في الدنيا والآخرة يحفظ المؤمن ما كان من دعائه(ص) : " رَبِّ اجعلْني لك شكَّارًا، لك ذكَّارًا، لك رهَّابًا، لك مِطواعًا، إليك مخبتًا، لك أوَّاهًا منيبًا " . (رواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي) ، وقال أيضا(ص): " اللهم إنَّا نسألك قلوبًا أوَّاهَةً مُخْبتَةً مُنِيبَةً في سَبِيلك ". - رواه الحاكم -. ونعود للتذكير بأن لفظ (خبيت) في درسنا يكون للمدح ، لا غير، وكل منا يطمح في أن يعدّ عند الله مخبتا منيبا، فاللهمّ اجعلنا من عبادك المخبتين إليك.

وتظهر لنا هذه الألفاظ غريبة لأنها غير مستعملة في لساننا العربي اليوم، أو تغيّرت دلالتها بعوامل وأسباب متعددة ومتباينة يهتمّ بدراستها علم الدلالة وعلماؤه. وبما أن (الغريب) كما فهمنا هو دائما في حاجة إلى تفسير، فقد بحث العلماء المسلمون الأولون في القضية إلى أن كان لهم من الفتح ما أرادوا، وأنشأوا علما من العدم، أخصوه لأنفسهم، وأسموه (علم التفسير). وسنقف يوما عليه وقفة دارس متدبّر، إن شاء الله.

2 / 2 - في الحديث الشريف :

أ- مفهوم غريب الحديث لغة واصطلاحا، وحقيقة وجوده:

أرجو أن تتذكروا جيدا أنه قد سبق لنا القول في موضوع عن معنى الغريب لغة واصطلاحا أثناء تناول " غريب القرآن ". وأستسمحكم الآن لإعادة بعض (الكُلَيْمَات) ابتغاءَ توكيد المعلومة وتثبيتها، فنقول: إن لفظ (غريب) يجمع على (غرباء)، واشتقاقه من: غَرُبَ عن وطنه غَرَابَة وغُرْبةً إذا ابتعد عنه، وغَرُبَ الكلامُ غرابةً إذا غَمُضَ وخَفِيَ.[12]، وبذلك نكون قد فهمنا أن اللفظ الغامض هو ما كان بعيدا عن الفهم، بسبب قلّة استعماله واحتياجه إلى بيان وتوضيح.

وأما اصطلاحا فقد يكون المقصود من (غريب الحديث) هو ما يخفى معناه لقلة استعماله ودورانه على الألسنة، بحيث يبتعد فهمه ولا يظهر إلا بالتنقيب عنه في كتب اللغة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ننبّه إلى أن " علم غريب الحديث " هو فنّ قائم بذاته ، قد أفرد له العلماء المختصّون بحوثا خاصة لأهميته، على اعتبار أن الفهم الصحيح والتلفظ السليم للكلمة أو العبارة الغريبة يتوقف

عليهما فهم المعنى الصحيح، وبالتالي يترتب صحة استنباط الأحكام الشرعية والإفادة القصوى من متن الحديث. ومن المؤكّد أن العناية بفهم الغريب من الألفاظ واجبة لمن يروى الحديث بالمعنى؛ لأنه لا يستطيع أن يختار من الألفاظ والعبارات ما يؤدى المعنى نفسه إلا إذا كان على فهم صحيح للفظ الأصلي.

وألّف العلماء في موضوع (غريب الحديث) تصانيف كثيرة، بأسماء متشابهة ومختلفة أحيانا، وليس من مهمتنا في هذه العجالة أن نوسّع الحديث عنه، غير أنه لا بأس من أن نتعرّف على وجود هذا الصنف من الغريب المتعلق بكلام الرسول الكريم)ص) ، وبيان مقاصده ، مع العلم رسول الله)ص) كان أفصح العرب لسانا ، وأوضحهم بيانا، ولا غرابة في ذلك فقد أيّده الله بالوحي، وعلّمه ما لم يكن يعلم، حتى انقادت له اللغة بحذافيرها انقيادا، مصداقا لقوله(ص) إنه قد " أوتي جوامع الكلم » .

ولفصاحته و قوة براعته كان بإمكانه أن يرتجل الألفاظ للمعاني ارتجالا فتأتي منه لطيفة عجيبة ، ينبهر لسماعها أهل البلاغة والفصاحة والبيان، من ذلك مثلا ما يُروى عن علي بن أبي طالب (ص) أنه قال : " ما رأيت أفصح من رسول الله(ص) ، ما سمعت كلمة عن عربي فصيح إلا وقد سمعتها منه ، وسمعته)ص) يقول : « مات حتف أنفه " ما سمعتها من عربي قبله ! ". وعن عمر بن الخطاب (ص) أنه قال : " يا رسول الله مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ قال : كانت لغة إسماعيل قد درست فجاء بها جبريل(عليه السلام) فحفَّظَنِيهَا فحَفِظْتُهَا ". والحديث - أخرجَه ابن عساكر في تاريخه - ، وورد الخبر برواية أخرى مشابهة نقلها السيوطي في المزهر.[13]

وكان الصحابة(رضي الله عنهم) يعرفون أكثر الألفاظ التي يقولها (ص) ، ولم تكن لهم مشكلة في فهم لغته إلا نادرا، ولكن نشأت أجيال من بعده لا تعرف من اللغة إلا ما تتخاطب به، وجهلت الكثير من ألفاظ اللغة ومعانيها، وغابت عن قاموسهم جملةٌ كبيرة من معاني الألفاظ الواردة في الحديث الشريف وفى غيره، ومن هنا وُجد الغريب، وكان شعور الناس بالحاجة إلى فهمه، والتخصّص في حفظه ودرسه، وصار بينهم مَن يُعرفُ (بتضلّعه) في هذه المادة فيوجّه إليه من يبتغيها. وقد يُسأل أحدُهم فيتحرّج ورَعا وتقوًى فلا يجيبُ، فيوجّه هو بدوره مَنْ سأله إلى العارفين بالغريب. فهذا مثلا الإمام أحمد بن حنبل يسألونه عن شيء من (غريب الحديث) فيقول: " سَلُوا أصحابَ الغريب؛ فإني أكرهُ أن أتكلمَ في قول رسول الله (ص) بالظن فأخطئ " .[14]

وإذا كان تفسير الغريب إنما يكون بالرجوع إلى أهل اللغة واستعمالاتهم فإن العلماء نبهوا إلى أمر هام وهو أنه قد يريد الشارعُ (المقصود هنا من يقوم بسنّ القوانين والتشريعات الدينية أو الدنيوية) من بعض الألفاظ غير ما يستعمله العرب ، وهذا كله يدرك بالقرائن والسياقات.

ج - بعض ألفاظ (غريب الحديث) وما قيل في تفسيرها:

أنبّهُ حضرة القارئ الفاضل إلى أن النماذجَ الحديثيّة المرفقة أدناه هي عيّنات قليلة من بحر واسع، ولا نرغب من وراء تقديمها سوى تحقيق غرض تربوي من خلال إعطاء مثال توضيحي للشروح. ومن أراد المزيد فلينظر المصنفات الكثيرة في هذا الميدان الفسيح ، والتي سنقترح عليكم بعضا منها لاحقا ، إن شاء الله. وفي انتظار ذلك تفضّل بهذه الأمثلة:

1 - عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ص) قال : " إن الله يُبْغِضُ كلَّ **جعظري ، جوّاظ ، سخّاب** في الأسواق ، **جيفةٌ بالليل ، حمارٌ بالنهار، عالمٌ بالدنيا، جاهلٌ بالآخرة** " . - الحديث في مقدمة ابن الصلاّح في علوم الحديث. وكذلك عند الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في " صحيح الجامع الصغير"، تحت رقم 1878 - نجد في الحديث جملة من غريب اللفظ وغريب المعنى، وكل يحتاج منا إلى توقّف وتدبّر، فتشعّب الآراء دليل على شدة غرابته. ولنبدأ بالألفاظ ، وهي- في حسبتنا - ثلاثة : **جَعْظَرِيّ ، جوّاظ، وسَخّاب** .

* **الجعظريّ :** ورد في معنى اللفظ أقوال منها: أنه ذلك الإنسان الذي يكثر جمع المال ويمنعه لنيّة فاسدة ؛ أي ليتوصلَ لإشباعِ شهواتهِ المحرَّمةِ وليفخَرَ و يتكبرَ على عبادِ اللهِ . أما من يجمع المال بالحلال فليس مذموما ؛ لأنّ رسول اللهِ (ص) لم يَذُمَّ المالَ ذماً مطلقاً ولا مدحَه مدحاً مطلقاً، المالُ منهُ ما يُذمُّ ، وهو الذي يصرفُ في معصيّة الخالق، ومنه ما يُمدحُ وهو الذي يُنْفق في الصلاح والفلاح، كما أمر الخالق(عز وجل). وقيل **(الجعظريّ)** ، هو الإنسان المتكبّر الجافي عن الموعظة. وقيل: هو الفظُّ الغَليظ.

* **الجوّاظُ :** هو الرجلُ المستكبرُ.

* **السخّاب :** صيغة مبالغة في (السَّخب) ، ويأتي اللفظ بالسين والصاد (السَّخّاب أو الصّخّاب)، ويعني كثير الخِصام بالأسواقِ ، و كثير رفع الصوت فيها؛ أي من شدةِ حرصِهِ على جمع المالِ يلجأ إلى كثرة الكلامَ والجدال واليمين (والهَفّ وتَبَلْعِيطْ) ، كل ذلك عنده جائز، والمهمّ هو الحصول على المال والثروة ، ولا يهمّ بعدها أبالحق كانت أم بالباطل!!

ونرى **غريب المعاني** يتمثل في كنايات الألفاظ **(جيفةٌ بالليل، حمارٌ بالنهار، عالمٌ بالدنيا، جاهلٌ بالآخرة)**، هذه الكلمات يبدو ظاهرها مفهوما، وباطنها مبهما.

ومما جاء في تفسيرها قوله: " **جيفةٌ بالليل؛** يعني أنه بليد في فهمه، منهمكٌ في عمله الدنيوي لا يلتفت إلى سواه من الطاعة والعبادة، فإذا جاء الليل استلقى على فراشه وبقي كالجيفة إلى الصباح، خاملا كسولا عن كسب حسنات القيام والناس نيام. **وحمارٍ بالنهارِ** ؛ أي أن همَّه التفنُّنُ بالأكلِ والإكثارِ من الملذاتِ، وينشغلُ بذلكَ عنِ القيامِ بما فرض الله عليه، ثم إذا كان إلى جانب ذلك **عارفاً بأمرِ الدنيا ، جاهلا بأمرِ الآخرةِ،** فقد عَظُم شرُّه؛ أي أن من آتاه اللهُ مالا وكان عارفاً بطرق جمعه لكنه جاهل بأمورِ دينه ؛ و بما افترض الله عليه معرفَته من علمِ الدينِ فهو من أشرار المخلوقات. والعياذ بالله.

2 – عن زيد بن حارثة [15] قال قال رسول الله(ص): أتزوجت يا زيد ؟ قلت. لا. قال تزوج تزد عفةً إلى عفتك ، ولا تزوجْ خمسًا : **شهبرة، ولا لهبرة، ولا نهبرة، ولا هيدرة، ولا لفوتا**. قلت: يا رسول الله لا أدري مما قلت شيئا، وأنا بأحدِاهن جاهل . قال ألستم عربًا ؟... أما الشهبرة فالطويلة المهزولة، وأما اللهبرة فالزرقاء البذية، وأما النهبرة فالقصيرة الدميمة، وأما الهيدرة فالعجوز المدبرة، وأما اللفوت فهي ذات الولد من غيرك " .

وقد وجدتُ لهذا النص ذاته روايات أخرى يختلف في بعض لفظها عن الأول، غير أنها تتفق كلها على مجيء مثل هذا الغريب على لسانه الكريم (ص). [16]

3 – عن عبد الله بن حرام قال: سمعت النبي(ص) يقول: " عَلَيْكُمْ

بِالسَّنَا وَالسَّنُّوتِ فإنَّ فِيهِمَا شِفَاءً من كُلِّ دَاءٍ إلاَّ السَّامَ . قِيلَ : يا رسُولَ اللهِ، وَما السَّامُ ؟ قَال : الْمَوْتُ ". (17)

ومما جاء في شرح هذه الكلمات ما ذكره ابن منظور في " لسان العرب " (انظر ج,2 ص 47 وج 14 ص 405 أن السَّنَا نبْتٌ يُتَدَاوَى به. والسّنوت (بفتح السين وضمّها)... قال: واختلفوا في أصل معناه، فقيل هو العسل، وقيل: الرُّبّ، وقيل: الكمون، وقيل: نَبْتٌ يشبه الكمُّون.

4 - وقال رسول الله(ص): " إن أحبّكم إلي وأقربكم مجلسا منّي يوم القيامة أحاسنُكم أخلاقا، وأبغضكم إليّ وأبعدكم منّي مجلسا يوم القيامة هم الثرثارون المتشدّقون المُتَفَيْهِقُون". قالوا : يا رسولَ الله قد عرفنا الثرثارين والمُتَشَدِّقِين، فمن هم **المُتَفَيْهِقُون** " قال : " **المُتَكَبِّرُون**".

والمتمعّنُ في مثل هذه الأحاديث، وهي كثيرة، يجده الرسول الكريم يتطوّع لشرح ما كان غريبا عن الفهم، وأحيانا تراه ينبّه المستمعين إلى مكانتهم في العربية، ولم لا يفهمونها وهم العرب الخلّص؟... وبهذا الفِعل يبدو لنا معجميا متمكّنا يصنع صنيع المعلم الذي يهمُّه أن يفهم تلامذتُه ما يسمعون.

وفي السيرة النبوية المعطّرة كثير من المواقف التي تخبر بقدراته (ص) على امتلاك ناصية اللغة، بما فيها معرفة لهجات العرب و(لغاتهم) وطبائعهم في الكلام وتشقيقه، كما يستطيع أن يخاطب كلَّ قبيلة بلهجتها، فيفهم منهم ويفهمون منه ما يقول بسهولة تامّة ، وقد يجاريهم أحيانا في طبائعهم اللغوية حتى إذا استعملوا غريبا وحشيا جاوبهم بمثله تلطُّفا منه واستحداثا للألفة والمحبة. وكانت وفود العرب تقدم عليه (ص) فيخاطب كل قوم ويكاتبهم (بلغتهم) فكان يتكلم مع كل ذي

(لغة) غريبة (بلغته) ومع كل ذي (لغة) بليغة بلغته. وحدث أن قدم وفد بني نهد (وهم قبيلة يمنية كانوا يتكلمون بألفاظ غريبة وحشية لا تعرفها أكثر العرب) ، فقام مقدمهم واسمه (طَهْفَة بن أبي زهير) خاطبا يشكو الجَدْبَ إلى رسول الله(ص) فقال: " يا رسول الله أتيناك من غوري تهامة بأكوار الميس ترمي بنا العيس نستحلب الصبير ونستخلب الخبير ونستعضد البرير ونستخيل الرهام ونستجيل الجهام من أرض غائلة النطاء غليظة الوطاء قد نشف المدهن ويبس الجعثن ومات العسلوج وسقط الأملوج وهلك الهدي ومات الودي..." إلخ.

فقال رسول الله(ص): "اللهم بارك لهم في محضها ومذقها ، وابعث راعيها في الدثر بيَانِع الثمر، وافجر له الثمد ، وبارك له في المال والولد ، من أقام الصلاة كان مسلماً ، ومن أتى الزكاة كان محسناً، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً " . (18)

ألا ترى معي أن استعمال النبي(ص) لذلك الوحشي من الألفاظ كان ضرورة وليس حاجة، لأن فصاحته لا تستوجب استعماله، فهو أفصحُ العرب وأبْيَنُهُم وأعرَبُهُم...، لكن في الأحوال والمقامات الخاصة مثل هذه يكون الغريب مسموحا به ومستساغا، بل هو مستحبّ حتى يبيّن لكل قبيلة من قبائل العرب بلهجتهم، فيفهموا عنه ويتفقهوا في الدين. والحقيقة أن فصاحة رسول الله(ص) لا تقتضي استعمال مثل هذه الألفاظ إطلاقا، بل ولا يكاد يوجد (الغريب) في كلامه اليومي إلا جوابا لمن يخاطبه بمثله، كهذا الحديث وما جرى مجراه.

ب - مُصنّفات في غريب الحديث ومعانيه:

اجتهد علماء الحديث واللغة، من الرعيل الأول، فصنّفوا في الغريب وشرحه، وقاموا بإحصاء دقيق لما عثروا عليه عبر التراث، وكمّل بعضهم بعضا في هذا الميدان، فكل متأخر قد يستدرك على من تقدّمه، فيضيف إليه، أو ينقص منه قليلا أو كثيرا.

وكان أول من قام بالتأليف في هذا الفن أبو عُبَيْدة مُعَمّر بن المُثَنّى (ت 209 هـ/ 824م)، إذ جمع من ألفاظ غريب الحديث والأثر كُتَيِّباً صغيراً، يمثلُ البدايةَ، والبدايةُ دائما صعبة. ثم جاء من بعده أبو الحسن النضْرُ بن شُمَيْل المَازني (ت 203 هـ/818م) ووضع كتاباً أكبرَ من كتاب أبي عُبيدة بسَط فيه القول على صغر حجمه. ثم جمع عبد الملك بن قُرَيّب الأصْمعي المشهور (ت 216 هـ/831م) كتاباً أحسنَ فيه وأجادَ، وكان كتابُه أكبرَ حجماً مِمَّن سَبَقه.

حتى إذا جاء زمن أبي عبيد القاسم بن سلام (ت 224هـ/838م)، وكان من كبار علماء الحديث والأدب والفقه، وجدناه وقد جمع كتابه المشهور في **(غريب الحديث والآثار)**. وأتمّه في أربعين سنة، وهو كتاب حافل بالأحاديث والآثار الكثيرة المعاني، اللطيفة الفوائد.

ثم أكثرَ الناسُ بعدئذ من التصانيف في هذا الفن، وغمرت عناوينُها المختلفةُ ساحةَ الميدان وفاضتْ حتى صَعُب عليّ حصرُها كاملةً في هذه العُجَالةِ، لهذا السبب أستأذنُ فأقترحُ عليكم النظرَ في بعض العناوين الهامّة التي يمكن الوصول إليها بسهولة ؛ فهي مطبوعةٌ ومتوافرةٌ على رفوفِ المكتبات ، ومنها :

1 – **" الفائق في غريب الحديث "** ، للإمام أبي القاسم محمود بن عمر، جار الله الزمخشري (ت 538هـ/1143م) . وهو كتابٌ قيِّمٌ جامعٌ، رتَّبَه على وضْعٍ اختارهُ على حروف المعجم، غير أن البحثَ فيه عن الكلمات الغريبة عَمَلٌ شاقٌّ؛ لأنَّه يجيء بشرح الكلمات الغربية في حرف واحد فتَرِدُ الكلمةُ في غير حرُوفها.

2 – **" النهاية في غريب الحديث والأثر"** ، للإمام أبي السعادات مجْد الدين مبارك بن محمد بن محمد الشيباني الجزري، المعروف بابن الأثير (ت 606 هـ/ 1209م) . يتناول الألفاظ الغريبة الموجودة في الأحاديث النبوية والآثار، يرتبها ألفبائيا مع شرحها ، ثم يذكر الكلمة وبعض الأحاديث التي وجدت فيه، ويضع عليها تعليقات هامة. يعتبر هذا الكتاب أفضل مصنّف في هذا الفنّ. وهو نفيس جدا، وفيه فوائد كثيرة، كما يعد أكبر مرجع في غريب الحديث. طبع بتحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطن، نشرته المكتبة العلمية بيروت، عام 9931هـ/1979م، في خمسة أجزاء.

ومِنَ المصَنِّفين مَنْ جَمَع (غريبَ القرآن وغريبَ الحديث) معا في كتاب واحد، مثل :

1 – أبي موسى محمد بن أبي بكر الأصفهاني المديني (ت 185 هـ/1185م) في كتابه **" المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث "** ، ويسمى أيضاً بـ**" تتمة الغَرِيبَيْن "**، وهو كتاب، طبعته جامعة أم القرى (المملكة السعودية) ، بتحقيق عبد الكريم الغرباوي. الطبعة الثانية 1426 هـ/1989 م.

2 – أبي عبيد أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الباشاني الهروي (ت104 هـ/0101م) ، في كتابه**" السائر في غريب القرآن والحديث "**، جمعه ورتبه ترتيباً

لم يسبق إليه، فاستخرج الكلمات اللغوية الغريبة من أماكنها، وأثبتها مرتبةً على حروف المعجم ، وحذف الأسانيد وجمع فيه من غريب الحديث ما في كتب من تقدّمه، وزاد عليه، فجاء كتاباً حافلاً جامعاً. ذاع صيتُه بين الناس واتخذوه عُمْدةً في الغريب.

2 / 3 - في غريب لغة العرب :

1 - مفهوم غريب لغة العرب وصفاته :

مرّ بنا في الدرسين السابقين (غريب القرآن وغريب الحديث) شرحٌ مبسط لمعنى الغريب لغةً واصطلاحا، ونعود لمراجعة بعض جوانبه هنا تذكيرا لمن نسيَ ، فنقول: أجمع أهل الاختصاص في اللغة على أن (الغريب) من الغرابة ، ومعناها " كون الكلمة وحشية، غير ظاهرة المعنى، ولا مأنوسة الاستعمال، فمنه ما يحتاج في معرفته إلى أن ينقّر ويبحث عنه في كتب اللغة المبسوطة " وقد بسطنا القول فيهما، وأعطينا أمثلة كافية ، حسب قناعتنا.

إن **(غريب اللغة)** بالمفهوم العام، يقابله (أنيس اللغة(. والأول هو كل الألفاظ التي لا نفهم معناها ، وتحتاج منا إلى استشارة (المعجم) ، وتمثل الكمّ الهائل من ألفاظ اللغة ، وقد أشار إلى عدده وكيفية حسابه عالمنا (الفراهيدي) في (عينه)، كما أكّد غلبة نسبتها في المجموع الإجمالي للمفردات الممكنة. وأما المصطلح الثاني فيراد به جملة الألفاظ التي حفظناها ونتداول مجملها في الأداء اللغوي اليومي للتعبير عن أغراضنا، لهذا السبب صارت معروفة مألوفة.

وهناك أسباب متعددة تجعل اللفظ غريبا، أهمّها الإهمال وعدم الاستعمال، وهو إخراج اللفظ من دائرة الاستعمال بطريقة عفوية عادة ، فينسحب من سلسلة

الكلام الملفوظ المتداول شيئا فشيئا حتى تغيب صورته ويَنْدَرِسُ أثرُه بعد أن كان معلوما مألوفا، ثم يأتي جيل من الناس لا يعرفه لفظا ولا معنى، وفي هذه الحال يصبح (غريبا).

واعتبرْ بألفاظ العصر الجاهلي بالنسبة لعصرنا، فمثلا إذا نظرنا في الشعر الجاهلي فإننا - حتْما - سنجد الكثيرَ الكثيرَ من الألفاظ التي نقف عندها حائرين لا ندري معناها، فنضطرّ إلى السؤال عن مغزاها، أو (استشارة) القاموس اللغوي عن فحواها. من ذلك مثلا ما تصادفه في دراستك للشعر الجاهلي من اللفظ الغريب وكثرته؛ لأن زمانَهم غيرُ زماننا، وألفاظ لسانهم غيرُ لساننا، فقد تهذّبت ألفاظنا فصارت أرقّ وألطفَ من ألفاظهم، بسبب تأثير الارتقاء الحضاري (المادي والمعنوي) الذي مرّ به الناطقون باللسان العربي، وصرنا لا نفهم كثيرا من ألفاظهم إلا بمساعدة القواميس، التي قد لا تسعفنا أحيانا، وإن تنوّعت طبيعتها ومادتها.

2 - أمثلة من غريب اللغة في الشعر والنثر :

وكمثال على ذلك هيّا ننظر إلى ألفاظ بعض الأبيات المختارة من قصيدة عربية مشهورة تسمى (لامية العرب) لشاعر مشهور من شعراء الصعاليك يسمى (الشّنفرى الأزْدي) نشرح بعضها، كما جاء (في لسان العرب لابن منظور) ، ثم أترك لك محاولة تدبّر أوجه (الغرابة) في بعض الألفاظ ومعانيها:

أقيمُوا بني أمّي صدورَ مَطِيكم ... فإني إلى قَومٍ سِواكم لأميلُ !

فقد حُمَّتِ الحَاجاتُ والليلُ مُقمرٌ ... وشُدَّت لِطياتٍ مَطَايَا وَأرْحُلُ

وفي الأرض مَنْأىً للكريمِ عَن الأذَى ... وفيهَا لَمَنْ خَافَ القِلَى مُتعزَّلُ

لَعَمْرُكَ ما بالأرضِ ضيقٌ على امرئٍ سَرَى رَاغباً أو رَاهِباً وهو يعقلُ

ولي دونكم أهْـــلُونَ : سِيدٌ عَمَلَّسٌ وأَرْقَطُ زُهْـــلُول وَعَرْفَاءُ جيألُ

هُمُ الأهلُ لا مُسْـــتَوْدَعُ السِّرِّ ذائعٌ لديْهِم ولا الجَانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ

وَهَاكَ شرْحًا مُقتضبًا لبعض الألفاظ الغريبة الواردة في المقطوعة :

- **(السِيِّد)** : " الذئب يقال: سِيدٌ رَمْلٌ، وفي لغة هذيل: الأسد والجمع سِيدانٌ، والأنثى سِيدَه، قال الجوهري ... وقد يُسمى به الأسد ". وعبارة الجوهري هاهنا تفيد سياق التقليل في الاستعمال الدلالي؛ إشارة إلى لغة هُذَيل خاصة دون سائر العرب.
- **(العَمَلَّس)** : " الذئب الخبيث والكلب الخبيث " .
- **(الأرْقَط)** : " الرُّقْطَة : سواد يشوبه نقط بياض، أو بياض يشوبه نقط سواد، وهو أرقط، والأنثى رَقْطَاء ".
- **(الزُّهْلُولُ)** : " الأملس من كل شيء ".
- **(جيْأل)** : " جَيْأل وجيْأَلَة : الضَّبعُ.

هذا من (الشعر)، وأما من (النثر)، فأقترح عليكم النظر في كلام هذه العجوز العربية البدوية المُكَنّاة (أم الهيثم)، حسب ما روته لنا أمهات الكتب ومصادر اللغة عن الأعراب ونوادرهم، وهو في حياة الأعراب وفي زمانهم كلام فصيح معتاد عربي لا غرابة فيه، بخلاف زمن أبي عبيدة (صاحب كتاب الغريب، وقد سبقت معرفته)، ثم بخلاف شديد لما نجده نحن اليوم.

وتمّن رواية السيوطي ، وعدّد الألفاظ الغريبة ، قال : " مرضتْ وعَادَها جماعةٌ وفيهم أبو عبيدة ، فلما استأذنوا ودخلوا سألها أحدُهم : يا أمَّ الهيثم

كيف تجدينَكِ ؟ قالت: أنا في عافية. قال : وما كانتْ علّتُك ؟ قالت: كنتُ وَحْمَى بدِكَة (تشتهي الودك)، فشهدت مأدبة، فأكلت جُبْجُبَة من صَـفِيف هِلِّعَة فاعـترتْني زُلُخَة ". فقلنا : يا أمَّ الهيثم؛ أيّ شيء تقولين ؟ فقالت: " أو للناسِ كلامان ؟... ما كلّمتُكم إلا الكلام العربي الفصيح!!" . (20)

الخاتمة:

لم يكن للعرب الأولين، سكان جزيرة العرب، في عصر الجاهلي ، وقبيل الإسلام، ذكر في البحث المعجمي، لأنه لم ينبثق في حياتهم مبرّر مقنع وهدف ملموس يمكن أن يدفعهم إلى الاشتغال بأمر التعجيم، وذلك لسهولة فهم ألفاظهم المتداولة ، فهم يعبّرون عن مقتضيات حاجاتهم بلسان عربي مبين، ينطقونه سليقة، ولم يكن همّهم البحث في ما وجد من تعقيد إلا ما ندر. ولكن الحاجة الماسّة إلى الإعجام برزت مع ما عنّ من غموض في فيض المعاني الجديدة التي أتت بها بلاغة القرآن الكريم ، وما أوجب عليهم الشارع الحكيم من حسن التدبّر والفهم، وتلك مسألة حساسة، ومن هنا فُتح باب النظر في غريب الألفاظ والمعاني، فصارت مبعث انشغالهم ومحطّ عنايتهم، يؤكّد ذلك ما جاء في التوجيهات التربوية للرسالة النبوية المحمّدية القائمة على الكلمة ومعناها، وهذا هو لبّ المعجمية في كلّ عصر ومصر. وقد رأينا في ثنايا العرض جملة من الأمثلة الحيّة من الإرث الموروث كان أساسها البحث في الغريب ، ورصدنا ما جاء فيها من شروح وبحوث وأقوال وتصانيف لعلماء أجلاء استدللنا بها على أن البحث في الغريب هو أساس المعجمية العربية في القرن الأول الهجري، وأن النشأة المعجمية الأولى هي عربية إسلامية أصيلة، بدأت بحافز ديني، وانتهت إلى البحث في اللغة من أجل اللغة. والله أعلم.

مصادر البحث ومراجعه:

* القرآن الكريم .

* الحديث النبوي .

1 ابن كثير/ التفسير. - دار الأندلس: بيروت، -د.ت-، ج .4

2 ابن منظور/ لسان العرب. مادة (غرب).

3 ابن النديم / الفهرست ، ط. طهران .

4 ابن الصلاح، تقي الدين الشافعي، في كتابه مقدمة في أنواع علوم الحديث، النوع الثاني

5 ابن عبد ربه الأندلسي/ العقد الفريد، ج.1

6 أحمد الشرقاوي/ معجم المعاجم.- ط .1-دار الغرب الإسلامي: بيروت ، -1407، 1987م-.

7 جار الله الزمخشري/ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل .- ط/ انتشارات آفتات تهران. -د.ت-. ج 2 .

8 جلال الدين السيوطي / المزهر في علوم اللغة العربية؛ تح. محمد جاد المولى وآخرين.- دار إحياء الكتب العربية: -د.ت- ، ج1 والثلاثين : معرفة غريب الحديث.

9 جلال الدين السيوطي / الجامع الصغير، ج1 .

10 الخطابي/ بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

11 الزمخشري/ أساس البلاغة . مادة (غرب) .

12 الفيومي/ المصباح المنير. (غرب)

13 مجمع اللغة العربية المصري، المعجم الوسيط، ج .2

الهوامش:

1 ـ ابن منظور/ لسان العرب. مادة (غرب).

2-الزمخشري /أساس البلاغة . مادة (غرب) .

3-الفيومي/ المصباح المنير. (غرب)

4-أبو عمرو، عيسى بن عمر الثقفي، النحوي، البصري، قيل كان مولًى لخالد بن الوليد رضي الله عنه ، ونزل في قبيلة (ثقيف) فنُسِبَ إليهم؛ وكان صاحبَ (تقْعير) في كلامه واستعمال للغريب فيه وفي قراءاته، وكانت بينه وبين أبي عَمرو بن العلاء صحبة، ولهما مسائل ومجالس. توفي سنة 149هـ/766م.

5-الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ص 34

6- أبو العباس، أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني، العلامة المُحَدّث، إمامٌ نحو، حجةٌ ، دَيّنٌ، صالحٌ ، مشهورٌ بالحفظ ، صاحبُ تصانيف كثيرةٍ، منها : " اختلاف النحويين " وكتاب " القراءات" ، وكتاب "معاني القرآن" ... عُمّرَ، وأَصَمَّ . صَدَمَتْهُ دابَّةٌ فوقَعَ في حُفْرةٍ ومات بسببها في جمادى الأولى عام 291 هـ/ مارس 904 م.

7- ابن النديم / الفهرست .- ط. طهران، ص. 81

8- أحمد الشرقاوي/ معجم المعاجم.- ط.1.- دار الغرب الإسلامي: بيروت ، 1407هـ1987م، ص15.

9- هو أبو العباس، عبد الله بن عباس، ابن عمّ رسول الله (ص)، ولد قبل هجرة النبي إلى المدينة بثلاث سنين (-3هـ/ 619م.(وهو صغير جاء به أبوه إلى النبي (ص) فقبّله ومسح وجهه ورأسه ودعا له، فقال: اللهمَّ امْلأْ جوفَه فهما وعلما، واجعلْه من عبادك الصالحين. ثم قال : يا عمُّ، هذا حَبْرُ أمتي وفقيهُها والمؤدي لتأويل التنزيل. كما دعا(ص) له ذات يوم بقوله:" اللهم فقّهْهُ في الدين وعَلّمه التأويل" . سَأل ابنُ عباس يوما بعضَ أصحابه عن شيء، فقال: لا أدري، فقال ابنُ عباس: أحسنتَ. إن قولَ لا أدري نصفُ العلم. وكان أحسنَ الناس عيْنًا قبل أن يكفَّ بصرُه قبيل موته بست سنين أو نحوها، وتوفي بالطائف سنة 68هـ687/ م، وهو ابن إحدى وسبعين سنة وأشهُر، أو سنة اثنتين وسبعين هجرية. رحمه الله.

10-راجع جلال الدين السيوطي في كتابه " الجامع الصغير" ، ج1 ، ص317

11 ـ جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل .

ط/ انتشارات آفتات تهران. -د.ت-. ج 2. ص 8, و" تفسير ابن كثير"، ط. دار الأندلس بيروت. -د.ت- .ج 7. ص 462. ومثله في" الإتقان في علوم القرآن"، للسيوطي.ج1. ص 113

12 - راجع مثل هذه المعاني في المعجم الوسيط، إصدار مجمع اللغة العربية المصري، ج 2/ ص672

13-جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة العربية. تح / محمد جاد المولى وآخرين ، دار إحياء الكتب العربية - د.ت-. ج1. ص35

14-انظر ابن الصلاح، تقي الدين الشافعي، في كتابه " مقدمة في أنواع علوم الحديث، النوع الثاني والثلاثين: معرفة غريب الحديث.

15- هو زيد بن حارثة بن شُرَاحيل بن كعْب بن عبد العزى، وكان طفلا حين سُبِيَ، فاشتراه حكيم بن حزام بن خويلد

من سوق عُكَاظ مع جملة من الشباب (الرقيق) ، فأهداه إلى عمته خديجة، ثم هي وهبتْه إلى محمد) حين تزوجته قبل البعثة، فأعتقه وتبنّاه، وصار يعرف في مكة كلها بـ (زيد بن محمد)، وذلك كله قبل نزول الوحي. ولما أبطل الوحي مسألة التبنّي عاد زيد إلى اسمه الأول (زيد بن حارثة)، وكان الرسول (ص) يحبه حبا جمًّا حتى لقب (حِبّ رسول الله). وتطوّرت الحال هكذا حتى صار زيد بن حارثه أمينا لسرّ رسول الله، وقائدا لبعوثه وسراياه، وأحدَ خلفائه على المدينة إذا غادرها (ص). وفي السنة الثامنة للهجرة استشهد زيدٌ في معركة دفاعا عن راية الإسلام، فبكى عليه رسول الله(صحتى انْتَحَبَ، ولما سُئل عن ذلك، قال: " هذا بكاء الحبيب على حبيبه ".

16 ـ جاء الحديث بروايات مختلفة في كل من كتاب " اليواقيت الثمينة في صفات السمينة " ، جلال الدين السيوطي، و"كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال" للمتقي الهندي، و"أدب الدنيا والدين ". لأبي الحسن الماوردي.

17ـ ذكره ابن كثير في" تفسيره". (ط. دار الأندلس بيروت، – د.ت–، ج4. ص7) حين شرحه للآية الكريمة (و أوحى ربُك إلى النحل) سورة النحل 16 / الآية 68.

18 ـ انظر ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، الجزء الأول.

19 ـ هو ثابت بن أوس الأردي، المعروف بالشنفرى ، شاعر جاهلي من أفتك الصعاليك وأعداهم، نشأ في بني سلامان من بني فهيم، فلما كبر عرف أنه أسر صغيرا، وقيل هم أخواله أخذوه بعد مقتل والده، فنشأ فيهم، فلما علم غادرهم وأقسم أن يقتل منهم 100 رجل قيل أنه سمي بالشنفرى لغلظة شفتيه مما يشير إلى سواد لونه، وقيل بل لحدة في طبعه. عاش في البراري والجبال وحيدا حتى ظفر به أعداؤه فقتلوه قبل 70 سنة من الهجرة النبوية. تنيب له لامية العرب وهي من أهم قطع الشعر العربي وإن لم تكن من المعلقات إلا أنها توازيها في البناء والثراء اللغوي.

20 – السيوطي في «المزهر» ج2 ص 539.